الامير دي جوانفيل في شمالي لبنان

اثر خطي عن رحلة ابن لويس فيليب ، ملك فرنسة ، الى لبنان

نشره لاول مرة واضاف اليه بمقدمة وتعاليق

الاب اغناطيوس طنوس كفرشخنا الراهب اللبناني

توطئة

حكاية المخطوطة

لما عهد غبطة بطريركنا المفدى ، مار انطون عريضة السامي الاحترام ، برئاسة المدرسة البطريركية في قصبة زغرتا الى حضرة القس سمعان عاقله ، في صيف سنة ١٩٣٣ ، انتدبنا حضرته مساعداً له في ادارة المدرسة مع القيام بتدريس الافرنسية والعربية لصف واحد . وفي شتاء تلك السنة المدرسية (١٩٣٣—١٩٣٤) كان يتردد الى المدرسة صديق حميم لرئيسها هو حضرة الوجيه السيد سليم طربيه من سبعل . وعندما تعارفنا لم يكن حظنا من صداقته باقل من حظ الرئيس . وفي بعض الاحاديث ، طلع علينا بخبر تاريخي استرعى الانتباه كله ، وهو انه يحفظ في خزانة كتبه القيمة مخطوطة جميلة موضوعها وصف زيارة الامير دي جوانفيل بن لويس فيليب ، ملك فرنسة ، الى البيت الكرمي والارز سنة ١٨٣٦ . فاصاب ذلك الخبر من قلبنا الوقع الطيب ، وسألنا السيد طربيه ان يتكرم علينا بهذه المخطوطة لنبعثها من الطي الى النشر . فوعدنا بها الى اللقاء الثاني ، ووعد الكريم صدق . فاقبل علينا بالمخطوطة المنتظرة ، وما تركها لنا حتى تأكد منا العهد الوثيق على نشرها والتعليق عليها . فشكرناه جزيلاً وانفردنا بها نقلبها ونتصفحها ، فالفيناها واقعة في ١٧ صفحة ، طولها ١٦ س .

في عرض ١٠ س. ذات خط حسن من النوع الكنعي البسيط ، وورق عادي صقيل متين ، اورد فيها مؤلفها ، وهو شاهد عيان ، تفاصيل دقيقة وافية عن مقدمات رحلة الامير دي جوانفيل في المياه الشرقية ، وكيفية وصوله الى ثغر طرابلس ، وصعوده الى اهدن ، وزيارته الارز ، وما جرى له فيه وفي البيت الكرمي ، ووقوفه اشيناً لابنة الشيخ بطرس كرم ، كل ذلك باسلوب مسجع ، يبدو فيه التكلف ، ولكنه ذو قيمة في ذاك العصر المتأخر بالشؤون الادبية . وقد رأينا المخطوطة جديرة بالنشر لما فيها من الفوائد التاريخية ، ولكونها الوحيدة من نوعها لم ينسخها ناسخ ولم ينشرها مؤرخ بعد.

خطها ــ مؤلفها

اما الخطاط الذي كتبها فهو الشيخ حبيب عواد من حصرون ، ابن الخوري يوسف من صلب الشيخ ابي سليمان عواد القديم الشهير . له اليوم حفيد من ابنه خاطر هو الشيخ شكري عواد الموظف حالياً في ادارة الجمرك بالاسكندرونة. كان خطاطاً مشهوراً في عصره يجيد الخط العربي والسرياني كما تدل عليه آثاره الخطية الرائعة في كثير من الكتب الطقسية في كنائس حصرون وبعض كنائس شمالي لبنان . وقد كتب في ذيل الصفحة الاخيرة من مخطوطتنا هذه العبارة :

« كتب هذا الكراس عن اصله حبيب عواد لجناب المواجا طوبيا طوبيه الابجد في ٥٥ ايار سنة ١٨٣٧ صح صح صح . »

كما انه كتب على الصفحة الخارجية الاولى من المخطوطة هذه الكلمة :

« تخص جناب المواجه طوبيا طوبيه المحترم . »

اما مؤلفها فقد ترجح لنا ، بعد البحث الطويل ، انه طوبيا طوبيه ، مقتنيها ومستنسخها بحرص واعتناء ، الذي يرد ذكره مراراً في تضاعيفها ، وقد واكب الامير في من واكبه من المشايخ والاعيان من اهدن الى الارز ذهاباً واياباً ، ولازم حاشيته طيلة وجوده في الشمال ، فوضع مشاهداته في هذا الكراس الفريد بنوعه في كل البلاد . وهو من اسرة طوبيه السبعلية ، من انبل الاسر اللبنانية ، وجدها هو العلّامة الشرقي الشهير المطران اسحق طوبيه الشدراوي.

الامير دي جوانفيل ، بطل المخطوطة

هو فرنسوا - فرديناند - فيليب لويس ماري دورليان ، المعروف بالامير دي جوانفيل ، ثالث اولاد لويس فيليب ملك فرنسة . ولد في بلدة نويلي - سور - سان ، القريبة من غابة برلونيه على ضفاف السان . دخل في مدرسة الجيش البحري سنة ١٨٣٤ ؛ وتعين ضابط دارعة سنة ١٨٣٦ . ولما ابلى احسن بلاء سنة ١٨٣٩ ، في احتلال حصن سان جان دولوا ، وامام قيراكوز ، كوفئ بالترقية الى قائد دارعة . وسنة ١٨٤٠ احضر الى فرنسة رفات نابوليون . وسنة ١٨٤٣ اقترن بالاميرة فرانسواز دي براغانس شقيقة بطرس الثاني امبراطور البرازيل (١٨٣١-١٨٨٩) ، ورزق ولدين : فرنسواز التي وُلدت سنة ١٨٤٤ وتزوجت من دوق دي شارتر سنة ١٨٦٣ ، وبطرس دوق دي بانتييفر الذي ولد سنة ١٨٤٥ . وكان ، في سنة ١٨٤٣ ، قد تعين اميرال الاسطول الفرنساوي واعطي لقب « امير فرنسة القديم » ، وسنة ١٨٤٤ تولى قيادة الحملة البحرية التي دمّرت ثغر موغادور على شاطئ الاطلانتيك في مراكش . وقد ابرز بشورته الحامية على وزير ابيه ، غيزو ، زعامة شعبية كبرى . وسنة ١٨٤٨ لحق بوالده المتنزل عن العرش الى المنفى . وعبثاً ازداف سنة ١٨٧٠ الى حكومة « الدفاع الوطني » ، وحاول ارضاءها بمجهودات عنيفة وخدم جلّى ذهبت ادراج الرياح . لكنه في سنة ١٨٧١ انتخب عضواً في المجلس الوطني ، ورُدّ عليه منصبه في الاميرالية البحرية . وفي سنة ١٨٧٥ اعتزل السياسة وقضى حياةً منفردة الى ان توفاه الله في باريس سنة ١٩٠٠ ، وهو من شخصيات فرنسة ورجالاتها اللامعين . ترك مؤلفات قيمة في شؤون البحرية الافرنسية مع كتابٍ نفيس ضمنه مشاهداته وتذكاراته من سنة ١٨١٨ الى سنة ١٨٤٨ واسماه مذكرات قديمة ، « Vieux souvenirs » طبعه في باريس سنة ١٨٩٥ .

موضوع المخطوطة في نظر المؤرخين

اهتمّ المؤرخون المعاصرون لزيارة الامير دي جوانفيل هذه ، وكتبوا عنها

نبذًا موجزة الكنها طريفة وعلى اهمية من القيمة التاريخية . واول ما يجمل بنا ايراده من اقوالهم ما كتب الامير دي جوانفيل نفسه في كتاب مذكراته الذي تقدمنا ذكره منذ هنيهة. وهذه ترجمة ما جاء بالحرف في صفحته ٩٨–٩٩ :

« ومن طرابلس سورية توقلت في جبل لبنان حتى قمته[1] فوقع نظري على مشهد من البلاقع والمجاهل فسيح الارجاء ، سحيق الاطراف ، تتوسطه خرائب بعلبك وصحاريها . وهناك تحت ظلال الارز الجبار كانت لنا مأدبة برية (او حقلية) (champêtre) مع بطريرك لبنان[2] ورهبانه[3] . »

ثم يقول : « وفي اهدن ، حاضرة الموارنة وعاصمتهم ، استقبلني الشيخ بطرس كرم ، الشيخان من الايام ، باعظم ما يمكن من الحفاوة الملوكية . واريق عليّ من ماء الورد العطر ما كدت اكون تحت وابله النزير في حمام او مغطس ، حتى انني انفت من رائحته على عطريتها الزكية . وقد كان وصولي اهدن موافقاً عيدًا عظيماً فيها يشغل الاحتفاء به شعبها بجملته ، وهو عرس ابنة[4] الشيخ بطرس كرم . وكل الامة الماروتية (كذا) قد هرعت الى هذا العرس في ملابس العيد ، وهي اروعة جمال في الوجوه الصبوحة والقدود الهيفاء . يسترعي افرادها الانظار خصوصاً بملابسهم وعمائمهم الشرقية اللبنانية . وقد وقفت شاهدًا (إشبينًا) للعروس ، فوضع على رأسها ورأسي ايضاً اكليلان متساويان ، وتت الاحتفال برتبة الاكليل الكنسية . واذ ذاك ارتجفت العروس تحت خمارها فوقع الاكليل عن رأسها . وبعد الرتبة قابلتني سافرة دون خمار ، فاذا بها على اسمرار جميل للغاية في زي معجب جدًا . على انها لا تعد من الغانيات . »

وممن كثيرا عن زيارة هذا الامير لبيت كرم[5] والارز ، المطران نقولا مراد

---

١) اي قمة الجبل الذي فوق الارز رأسًا ، كما سترى في النص المخطوط .

٢) هو البطريرك يوسف حبيش الشهير .

٣) يريد الحاشية البطريركية من الكهنة العالميين الذين خالهم رهبانًا .

٤) كانت التي تكللت على الشيخ نسه الشي كما سيجيء .

٥) اشتهر البيت الكرمي في اهدن بثيابته وحسن استقباله اشتهاره بتأصله في النبل والمجد . وقد حلّ فيه كثير من العظماء والوجهاء . نذكر منهم في القرن الاخير الكونت

الماروني من قرية عرامون كسروان في صفحة ١٩ و٣٦ من نبذة تاريخية عن الموارنة وعلاقاتهم بفرنسة ، طبعت في باريس سنة ١٨٤١ . وما جاء فيها عن الزيارة ستقرأه مفصلًا في نص المخطوطة مما قليل . فلا حاجة الى اثباته هنا .

ثم نسيم نوفل ، كتب عن موضوع المخطوطة بعض الشيء في كتابه « بطل لبنان » المطبوع بالاسكندرية سنة ١٨٩٦ ، صفحة ٢٥٣ . فوصف بالاخص حفلة الزفاف بكل دقائقها مما سنثبته في حاشية خاصة عند ذكر المخطوطة .

واخيرًا جاء حضرة البحاثة الفاضل الخوري اسطفان البشعلاني بكتابه القيم الضافي عن تاريخ بطل لبنان وعنوانه « لبنان ويوسف بك كرم » . فاستعان باكتب المطران مراد ونسيم نوفل ، على ما دونه حضرته عن زيارة دي جوانفيل للبيت الكرمي في كتابه المذكور صفحة ١٣٥ و١٣٦ و١٣٧ . فعليك بذلك هناك .

واليك ، بعد هذه التفاصيل ، وصف زيارة دي جوانفيل للارز والبيت الكرمي في نص المخطوطة بعبارتها المسجعة وحرفها الواحد :

دي جيرامب ، من الرهبان الكبوشيين ، في ١٨ ايلول ١٨٣٢ ؛ ثم الشاعر الفرنسوي الكبير الفونس دي لامرتين في اول نيسان ١٨٣٣ ؛ ثم الامير دي جوانفيل بطل مخطوطتنا ، في السنة ١٨٣٦ . وحلّ الدار الكرمية سنة ١٨٣٩ ابراهيم باشا الفاتح المصري . ثم المرنسيور ميلن الرحالة السوي الشهير سنة ١٨٤٨ . وكذلك اقام في ضيافة هذا البيت اوجين بوجاد ، قنصل فرنسة العام في بيروت بعد السنة ١٨٦٥ . ثم الكونت دي پاري ، ولي عهد فرنسة ، سنة ١٨٦٠ . وفي السنة التالية زارها فؤاد باشا ، ناظر خارجية تركية ، ورئيس اللجنة الدولية للنظر في حوادث ١٨٦٠ . وممن زارها من العظماء البرنس اوف ويلس ، ولي عهد الملكة فيكتوريا سنة ١٨٦٣ . ثم ولي عهد سكسونية . وأكثر متصرفي لبنان قبل الحرب . والكثير من القناصل والقوّاد والاميرالية الاجانب ، وجمّ غفير من كبار الرحّالة ، ورجال الدين والدنيا من شرقيين وغربيين .

[١] تذكرة

بزوغ شمس سليل السلطنه الفرنساويه

في اقاصي الديارات الشرقيه

١ مقدمات الساعة وظروفها[١]

ان جلاله الملك المهاب المنتصر ، لويس فيليبوس الاول المظفر[٢] ؛ سلطان الجماهير الفرنساويه ، وصاحب العزه القيصريه ؛ لما تسنم معالي ذروات العز والافتخار ، وجلس على سرير سلطنه فرنسا ذات الاقتدار ؛ قد وجه فكره الشفاف ، نحو اشباله الاشراف ؛ مؤثراً ان ينظم كلاً منهم بمقام ، كما حسن لرأيه الملوكي المقوام . فاخص النجل الاول[٣] ذا اللطافه ، والمتولي بعده الخلافه ؛ بشرف مقام سام ، اي سر عسكر[٤] عام . واخص النجل الثاني المصان[٥] برياسه الالايات الخياله الفرسان ؛ ومميناً بصمصامه الابتر ، لسعاده اخيه الاكبر .

اما النجل الثالث المجيد ، والشبل الفتاك العنيد ؛ العالي الشان ، والمتوقد الجنان ، الاثيل الامير فرديناند دورليان ، برنس دي جوانفيل ؛ قد حسن لارادة ابيه السنيه ، ان ينظمه مع الجيوش البحريه ؛ لكي بعد ان يتقن

---

١) ان كل ما ترى من العناوين المتسلسلة والنقط والفواصل « ، » والرجوع الى السطر عند اللزوم هو من وضعنا .

٢) ابن الامير فيليب ايگاليته والاميرة لويزا دي بوربون . ولد في باريس سنة ١٧٧٣ تسنم عرش فرنسا سنة ١٨٣٠ . ترك سنة ١٨٤٨ لخليفه الكونت دي پاري الذي كان والده دوق دورليان قد مات سنة ١٨٤٢ . ونفي الى كلارمون بانكلترة حيث توفي سنة ١٨٥٠

٣) دوق دورليان شارل هنري المعروف بدوق دي شارتر الذي ولد في باريس سنة ١٨١٠ وتوفي سنة ١٨٤٢ ، وهو والد الكونت دي پاري ، ولي عهد فرنسا المذكور .

٤) إصطلاح تركي معناه رئيس العسكر وقائده .

٥) دوق دي نيمور لويس شارل فيليب . ولد في باريس سنة ١٨١٤ وتوفي سنة ١٨٩٦

استعلام هذه المعجه ، يحرز الارتقاء درجه فدرجه ؛ حتى الى وظيفه سرعسكر البحار ، وضابط عمارات دولته البحريه في كافه الاقطار .

ففي الحال لبى هذا الابن المطواع ، صوت جلاله ابيه المطاع ، وارمى بنفسه في البحار العباب ، رهينه السفن والاخشاب . واذ كان الامر معلوماً من عامة الانام ، ان ضابط العمارات البحريه العام ؛ يلتزم في كل الممالك ، ان يخوض جميع البحور ويتجرع التهالك ؛ فلهذا قد التزم هذا النجل المنصار ، ان يستتبع هذه الاثار ؛ فيتدجج بقوى اسلحه الرحمن العاليه ، ويهج اولاً بلاد ايطاليه . ثم سار ثانيه بنفس سارّه ، ناجماً جهات انكلاتره . واخذ ثالثاً يقطع البحور [٢] وينحو جزاير اسور[1] ؛ خايضاً بعزم نشيط ، مخايض البحر المحيط . وفي الرابعه قد اثر القرب ، الى جزاير العرب . ثم قاء بعدُ من هذه الاسفار الشاسعه ، الى المدينه المتملكه باريز الشمس الساطعه . فتقدم باسر عظمه ابيه الحزوم ، الى فحص فاحصي غزاه البحور حسب الرسوم . فظهر بعد الفحص فطحلاً شجاعاً ، وبطلاً جراعاً ؛ متعمقاً بهذا الفن ومتعلقاته ، ومدركاً كامل غاياته . فنال من ابيه بالمحظوظيه ، وبالاحرى ، قد حاز التقدم من وظيفه الى اخرى . ولا زال يرتقي سؤدد المعالي ، ويتولى المراتب والموالي ؛ الى ان حاز من الوظايف العظام ، رتبه قيسقام .

٢ العزم على السفر والذهاب له

ثم راق ايضاً لاراده ابيه السنيه ، ان يرسله خامساً نحو الاقطار الشرقيه ؛ فلبى صوت ابيه الخطير ، واسرع للسفر دون تأخير . ولما حل بركابه الشريف المصون ، في احدى مدائن فرنسا المعروفه ببطولون[2] ؛ الشهيره بيننا الحروب ،

١) وبالافرنسية (Açores) وهي مجموعة جزر في الاوقيانس الاطلانتيكي الشمالي على ١٣٠٠ كيلومتر من البورتوغال ، وعددها ٩ : سانت ماري ، سان ميشال ، تيرسايرا ، سان جورج ، غراسيوزا ، فايال ، بيكو ، كورفو ، فلوريس . وكلها اليوم تحت الحكم الافرنسي .

٢) من اعظم الثغور الحربية ، موقعها على الشاطئ المتوسط شرقي مرسيلية . وسكانها اليوم ١١٥٬١٣٠

والترس الموقي من الخطوب . فتأهبت هذه لاستقباله ، مبتهجة باقباله ؛ واثارت المدافع براً وبحراً من جهاتها الاربع ، فتدت اصواتها كالرعود من كل مربع . واذ كان قد خرج الامر الكريم الموقر ، من سعاده وزير ومدير امور البحر المظفر ؛ ان يعتد لركب سعاده الامير المومى اليه مركوباً امينا ؛ وهو احدى الفراتاكات المعروفة بالالايفجينا[1] الشهيرة بحمول معلوم من المدافع ستون مدفعاً ، ومن الرجال خمسمايه واربعه عشر جدعاً[2] ؛ تحت مناظره الرجل الشهير الامين ، تيودان باشي المعروف في برسفال دوشين[3] . وأعد ايضاً بصحبتها البريك[4] ، المسمى دوكديك[5] ؛ الشهير بحمول معلوم من المدافع اثنان وعشرون مدفعاً ، ومن الرجال مايتان وستة عشر سعيداً[6] ؛ تحت مناظره الرجل الباسل النشمم ، الكومندانت بريت المفخم[7] .

---

١) محرفة وصوابها ايفيجينيا Iphigénie او Iphigénia ، وهو اسم تاريخي شعري لابنة اغاممنون بطل الاغريق الاعظم ، وقد قدما ابوها ضحية الى الآلهة ليتمروه على اعدائه الطرواديين . اتخذ قصتها نوابغ الروائيين موضوعاً لاعظم آثارهم التمثيلية عما هو زينة اهم المراسح في العالم . ولشهرة هذه الابنة اطلق اسمها على الدارعة التي اقلت دي جرانفيل في سياحته هذه . وقد ذكرها هو في « مذكراته القديمة Vieux souvenirs » ، صفحة ٩٤

٢) لفظة عامية يراد بها الشجاع .

٣) Parseval Deschênes ، وهو الكسندر فرديناند اميرال الاسطول الفرنسي الشهير . ولد سنة ١٨٠٩ وتوفي سنة ١٨٦٠ . وجاء ذكره في الكتاب المذكور : « المذكرات القديمة » صفحة ٩٤

٤) لفظة افرنسية (brick) معناها مركب شراعي ذو صاريين مربعين .

٥) تحريف دوكريديك Ducouédic وهو اسم شهير . قدم لشارل لويس احد ضباط البحرية الافرنسية البلاء . ولد سنة ١٧٦٠ ومات صريع الوغى سنة ١٧٨٠ ، وتخليداً لذكره اطلق اسمه على هذه السفينة المذكورة ايضاً في كتاب « مذكرات قديمة » صفحة ٩٣

٦) والصواب سَعِيدَع معناها السيد الكريم الشريف الموطأ الاكناف والشجاع . وغلط من كتبها بالدال المهملة وضم السين .

٧) محرفة ايضاً وصحيحها بُرُوا (Bruat) وهو اومن جوزيف الاميرال الافرنسي المشهور ولد ١٧٩٦ وتوفي سنة ١٨٥٥ . وكان رفيق دي جرانفيل في هذه السياحة ، كما ورد ذكره في صفحة ٩٣ من المذكرات المعهودة .

٣ً الشروع في السفر

ومن ثم قد تحرك ركاب سعادته السعيد ، الى هذا السفر [٣] البحري المديد . ولما دنا من جزيره مالطه ، بنفس رضيه غابطه . فلم يرغب ان يتحول عن التيار ، بل ظل خايضاً البحار ، وقاطعاً الطرقات ، من غير التفات . ولما بلغ لمدينة اثينا الزهيه ، الشهيره بكرسي المملكه الروميه ؛ فحصل هناك لمقامه المفخام ، استقبال ملوكي سام . ثم تحرك من هناك بالمسير ، الى ان بلغ ازمير ؛ ومنها الى رودس ، ثم جزيرة قبرص . ولما انه اقترب من لاذقيه العرب ، فلم يشاء ان يدنوا الفراكاته الى المرسى ، ولا ان يلقى به مرسى . بل اخذ فلوكة صغيره ، وبمعيته قبودان باشي واتفار يسيره ؛ وخرج للاسكلة المومى اليها ، فاقام نحو ثماني ساعات فيها . ثم انعكف للادبار ، لتكميل ما عليه من الاسفار .

٤ً الوصول الى ميناء طرابلس

ولما كان اليوم الـ ٢٩ من شهر ايلول النفيس ، والساعه الـ ٩ من النهار المعروف بالخميس ، وسنة المسيح الجزيله الشرف واللطف ، الواقعه في عدد ست وثلاثين وثمانمايه والف ؛ قد اشرقت شموس هذا النجل الهمام ، في نواحي مدينه طرابلس الشام . واذ كان موجوداً بهذه المدينه ، الشاب اليقظ اللطيف ، والرجل الفطن الشريف ؛ الحميد الشيم والمزايا ، والحسن المناقب والسجايا ؛ مسيو جفروا[1] الفرنساوي المكرم ، قنصل دوله فرنسا المفخم . فهذا اذ شام اقبال المراكب ، ولم يبدر من هو الراكب ؛ فمن دون ان يخلع عنه ملابسه النير الزرينه ، ويتسربل باسمال[2] الوظيفه ؛ قد قام فوراً وبمعيته الكنشلير ،

---

١) جهدنا كثيراً لتعريف هذا القنصل فلم نظفر بذكر له ، لا في مذكرات دي جرانفيل ولا في قاموس الاعيان العام .

٢) يعني الاثواب . والاسمال : ج . سِمْل ومعناه الثوب المُخَلَّق البالي . ولم يقصد به المؤلف هذا المعنى .

وجد كلاهما بالمسير ؛ لينظرا من المفاجي ، وهل ثم خبرٌ ومناجي . فلما بلغا الينا حيث الشاطى ، واذا بفلوكه مقبله عليهما من غير تباطى ؛ وضمنها احد ملازمي عسكر فرنسا المنصور ، اتياً لاحضار القنصل المذكور . فسأله القنصل من هو كومندانت الفراكاته القادمه ، وما هي المأموريه اللازمه ؟ اجاب الملازم بانه لا يعلم شيئاً اخر ، سوى ان النجل السعيد المظفر ، سليل السلطنه [١] الفرنساويه ، قادم بهذه الفراكاته الزهيه ؛ وهو صاحب الامر الجزوم ، في احضار القنصل المرقوم . فارمى على الفور القنصل والكنشليز نفسيهما بالسفينه ، وسارا عاجلين من غير سكينه . فلما انتهيا للفراكاته السعيده ، قيل لهما ان سعادته جالس على المايده . فبلغ خبر وصولهما المقدم ، لسعاده قبودان باشي المفخم . فنهض حالاً عن الطعام ، واستقبلهما بكل انس واكرام . وبعد ان حياهما بالسلام ، احجم فوراً لدى النجل المهام . فاستأذنه بادخالهما لديه . فدخلا وامتثلا بين يديه . فحازا من لطفه الرفق والهشاشه ، اذ صادفا منه كل لطف وبشاشه . ثم امرهما بالجلوس ، فجلسا طايبي النفوس .

٥ السعي لزيارة الارز

وبعد هنيهه اظهر للقنصل المار ذكره ، ما ارتاح اليه ترقد فكره ، سايلاً اياه ان كانت تمكن زياره ارز لبنان ، بعده ثلاثه ايام من الزمان . فاجابه القنصل بالايجاب ، وانه ليس هو من الامور الصعاب . فامره حينئذٍ بسرعه التأويب[١] ، لاستحضار ما يلزم من المراكيب . وانه في الساعه الثامنه من النهار الثاني ، تسيكون السفر الملوكاني .

فلياه القنصل مسرعاً بالرجوع ، وتمم المأموريه من غير هجوع . واذ كان القنصل يعلم بتحقيق ، لزوم سعادته لقطع ليلتين بالطريق ؛ فسبق ولحظ ان المحل الموافق العدين ، هو القريه الشهيره باهدن . حيث ان هناك يستولي على نهار سفر سعادته الاسفار[٢] ، ويلتزم به لاخذ الراحه من عي الاسفار . واذ كان

١) اي المآب والرجوع . اعتمده المؤلف للسجع .

٢) عبارة مضاربة المعنى والمبنى تفسرها الجملة بعدها : « لاخذ الراحة من عي الاسفار » .

متقدم المحل المذكور ، معلوماً بل ومحبوباً من القنصل المنفور[1] ؛ وهو الرجل الماروني الشريف النسب ، الزكي العرف والفسيح الرحب ؛ المحب الدوله الفرنساويه العظمى ، الشهير بالشيخ بطرس كرم[2] اسماً ومسمى. فلهذا امسك القنصل [٥] ساعياً (رسولاً) بالحال ، وارسله للشيخ المومى اليه من غير امهال. فاخبره ما وقع عليه الخاطر ، من صاحب السعاده والمفاخر . وان توجه سعادته هذا سيكون بصفه سايح في النبراء ، لا كابن الملوك والامراء.

وعند غد ذلك الصباح ، المعدّ للسفر الاغر المصباح ؛ قد حضر لدار القنصليه ، جناب الاجل الماجد المفرد ، السنيور جورجي كاتشفليس[3] قنصل الانكليز الامجد. ثم شقيقه الاجل الاحشم ، السنيور خريستوفي قنصل فرنسا المحترم. ثم افتخار الأماجد الكرام ، الحاج صالح افندي وكيل متسلم طرابلس الشام[4]. واظهروا للقنصل ما جوته الاراده، وانهم آتون لملاقاه صاحب السعاده. فتوجهوا والقنصل من غير احجام ، وصحبتهم جمع من الخدام ؛ آخذين بجد الذهاب والمسير ، الى حيث هو سعادة الامير. وفيما هم بوسط الطريق مجدين الاقدام ، واذا بسعادته قادم على الاقدام ؛ وبمعيته احد الملازمين الشهير بالكولير اترته[5] المنازي ، ووكيل الاسكلة المعروف بمصطفى غازي ، فتقدموا لاستقباله ، وتشرفوا بتبلة اذياله . وقدّم القنصل لديه الخيل المعده لركوبه ، واعرض ان اهبه السفر تهيأت حسب مرغوبه . فامر ان ترسل عشره روس من الخيل اخرين ، لركوب سايرالاتين . منهم مسيو برنيت وقبودان باشي ، وسته

---

١) اي المكشوف. عنى بها المذكور او المعروف لاستقامة السجع.

٢) والد يوسف بك كرم.

٣) او كاتسفليس. وهي من اثيل اسر الروم الارثوذكس في بلادنا ، اغريقية الاصل من جزيرة كورفو اليونانية في البحر المتوسط . برز منها شخصيات وجيهة اعتدها الدول المسيحية قناصلها في طرابلس.

٤) هو خلف مصطفى آغا بربر ، ولم نظفر باسمه على رغم بحثنا ، وعسانا بمكتشفيه في بحوثنا عن تاريخ بربر الآخذين بتكوينه.

٥) احد رفاق الامير دي جوانتيل. وقد نشدنا اصل اسمه بالافرنسية في ام المراجع ، فوجدناها مع « المذكرات الندية » ايضاً نقلاً عن اي ذكر لهذا الرجل وعائلته.

من الاوفيساليه (الضباط) الحواشي. ولا سوى مما تقدم ، الا نفرين من الخدم. فلباه القنصل بما ذكر ، وارسل الخيل حسبما امر . ثم انعكف للاياب سايراً ضحية الركاب.

٦ً زيارة طرابلس

ولما بلغ سعادته للمدينه المحميه ، عرّج الركاب لحي القنصليه الفرنساويه. فاقام به يسيراً من الزمان ، وذهب للمدينة السابقة البيان. فجال كافة شوارعها واحياها، الى ان [٦] اكل الغايه من مراها. ثم توجه نحو ذلك المحل، المعروف بالتل ؛ وكانت وقتيذٍ الساعه الثامنه من النهار، المرسومه لاخذ طريق الاسفار. ففي الحين عينه اقبل سعاده قبودان باشي وساير الاعوان ، فنر سعادته للركوب كالاسود الشجعان . وامر ان يكون المذكورون والقنصل من المسافرين بركابه الشريف ، ومعهم ايضاً الشاب الانيس والفرع النفيس اللطيف، الخواجه موسى بنبينو[1] ترجمان القنصلية الفرنساويه ، وجمهور من ابناء الديانه المسيحيه.

٧ً في طريق الشدره

ثم اخذوا يجدون السير ، بعدوٍ يحاكي خفة الطير. وقبل ان يناهزوا الوقود ، لمحل اهدن المعهود ، قد انتهوا الى طرقات شاقه شزونه ، ودخلوا العقبه الشهيره بجيرونه[2]. واذ كان هناك قد شاخ النهار وانهزم ، ودجن الليل واعتم ؛ وشق التيار ، وكثر العثار ؛ فاستحوذت عليهم عوارض الحيره ، واستولى جمهم ظلامُ البصيره. وفيما هم بهذه الحال المكفهرّه ، يقاسون نوايب شديدة مرّه ؛

---

١) بنبينو ، لفظة ايطالية معناها الولد الصغير . واصطلاحاً هي اسرة لاتينية نبيلة شهيرة نزحت الى طرابلس حول سنة ١٧٢٦ من جزيرة كورسكا ، فاشتدت فرنسة اعضاءها تناصل ووكلاء قنصلياتها في طرابلس وحماه وبيروت.

٢) لفظة سريانية اصلها سخدونا تصغير سخدا ومعناها ارض وعرة ذات تلال ومناور. وهي طريق عقبة تطرقها الارجل صعوداً ونزولاً بين اهدن وساحل الزاوية وطرابلس . موقعها شرقي قريتي سبل وايلو وراء حرج اجبع الجميل.

اذا قد تخيّل امامهم رجل ماشي ، من رعاه المواشي ؛ فسُئل من القنصل : من ذا المؤانس ، بالليل الدامس . فاجاب الموسى اليه ، بانه من رعاه مواشيْ الخواجه طوبيا طربيه[1] ، حبيب السايل ، ومجيب المسايل . ففرح القنصل اذ سمع حسن جوابه ، لا سيما اذ هو خاصة احبابه . وقال له فترغب اليك اذاً ان تكون من حفظة نعم ، وتدلج امامنا على القدم ؛ موقداً بازاينا مصابيح النار ، لتنقذنا من هذا العثار . فاباه الرجل من غير احتجاج ، واخذ بايقاد المصابيح والاسراج .

٨ً الاستقبال في اهدن

ولما دنوا من الوصول الى اهدن [٧] وتلك الطلول ، اسرع القنصل بارسال الخبر ، للشيخ بطرس المحرر . اما الشيخ المذكور اذ كان يؤمل هذا الاقدام ، قبل دجون الظلام ؛ قد كان صنع نهاراً الاستعداد الفاخر ، للقاء سعادة هذا الليث الظافر ؛ وخرج من القريه هو وبنوه وساير اقربايه ؛ وجمع غفير من خواصه واصدقايه ؛ سايرين مسافه بعض اميال ، ينتظرون اقبال صاحب الجلال . ولما اطالوا المكث وداهمهم الظلام ، وابطا سعادته عن الحلول والاقدام ؛ فاستحوذ على جمعهم ضعف الرجا ، بتدومه بذلك الدجا . ولما حصلوا بهذا الارتياب ، انعكفوا للاياب .

وفيما هم في الهذيذ (الحديث) والمنافسه ، في ثالث ساعه من تلك الدامسه ؛ اذا قد وقف في بهرة جمعهم احد الشان ، ونشر عليهم بشرى تدوم سعادته بذلك الان . فهبّ الشيخ وبنوه وجميع من حضر ، هبّة البارد عند ملتقى الشرر ؛ اخذين بايديهم المصابيح والشموع المسرجه ، متسابقين للملاقاه الشريفه المبهجه . واذ بعدوا قليلاً عن المحل ، واذا بركاب سعادته قد حل . فساروا امامه باحتفال طابت به النفوس ، حتى الى الغرفه المهيّاة للجلوس . فجلس بمكانه واجلس بحضرته كافه اعوانه . ثم حضر الشيخ الموسى اليه (بطرس كرم) ، وامثل متهيباً بين يديه . وبعد ان استعلمه سعادته اخذه بالمشاشه ، وانثنى

١ مؤلف المخطوطة على رأينا ومقتبلها ، راجع التوطئة .

يخاطبه بكل رفق وبشاشه . ثم اجلسه عن جانبه اليمين ، وهكذا اجلس ساير الحاضرين فاسدوه وجلاله والده القاهره ، مواجب الدبرات المتواتره .

٩ الليلة الاولى في البيت الكرمي

وبعد ان مضت ساعه من الزمان ، واخذ راحته كل عيان ؛ فامر بسعادته باحضار العشاء ، فحضر فوراً حسبما شاء . فجلس على المايده واجلس باشماله الشيخ بطرس عن يمينه والقنصل عن شماله . ثم الملازم موسيو انزته المعتبر ، وقبودان باشي المرقر ؛ والكومندانت [٨] بريت ذي الاكرام ، والاوفياليه الستة الكرام . واذ كان الشيخ وقتيذٍ مهتماً بصدقه غير مظنونه ، بتزويج ابنته كاترين الكبرى المصونه بخطيبها الشاب الشهير المعروف بالشيخ نعمه العشي[1] ولد الشيخ لطوف . وانه في اليوم الثالث من تشريف سعاده النجل الامجد ، والثاني من تشرين الاول المحكم يوم الاحد ؛ ستكون حينيذٍ حفلة السرور والابتهاج ، باتمام اكليل هذا الزواج . فلهذا قد كان العرس يومئيذٍ بادي الاستعداد ، حسب عاده البلاد ؛ قاعاً محفله بذلك المغنى ، بالطرب والفرح والرقص والغنا . واذ كان المحفل ملاصقاً بيت العروس ، حيث وجود سعادته وساير الجلوس ؛ قمعوا وهم على المآكل ، ضوضاء العرس والمحفل : الطبول بالرجيج ، والزمور بالصفير والضجيج . فسأل سعادته عن المغنى ، فأعرض لديه من غير استثنا . وبعد ان انتهى من المآكل ، قد رغب الذهاب الى المحفل . فذهب وبحيته جميع من كان ، واخذ يتفرس باعمال المكان . فاقام نحو ساعة من الزمان ، متعجباً في منظر كتا جديد العيان . ثم انعم على ارلى الرقص بما اراد . ونهض للرجوع والمعاد ، فراقه له الوسن والرقاد ، لاخذ الراحه من الطراد . فذهب لمخدع منامته ، وهكذا جميع عزوته .

١٠ زيارة الاورنز بموكب عظيم

وبعد ان خطف من النوم نحو اربع ساعات ، قد هبّ هبه النطاحل الى

١) اسرة شامية يرتقي اصلها الى اوائل القرن الرابع عشر . سميت بذلك لان جدها يقال عنه انه كان طاهياً ماهراً عند حاكم الشام .

الغارات ؛ مريدًا بذلك السحر، تكميل ما عليه من السفر. فامر بشد الركبان، واخذ بالكد لارز لبنان. فسار وبمعيته خواصه وحواشيه، والشيخ بطرس وابنيه[1] وابن اخيه[2]؛ والخواجه طوبياطربيه والشيخ خطار الشدياق[3]، وغيرهم كثيرًا من الرفاق، وركاب خيل وازلام، وشردمه من الخدام[4].

ولما اقبلوا على ذلك الارز، المتقدم عنه الرمز؛ فدخل سعادته والبقيه، تحت [٩] ظلال تلك الإشجار البهيه. واخذ يتأمل بنباتها الراسخ، ويتفرس بارتفاعها الشامخ. ثم جسامة اجسامها الجسيمه، المخبره عن احقابها القديمه. اذ قد بلغت كمية غلاظه احدى هذه الأشجار، استدارة خمسة باعات ورجال كبار. فتحقق حينيذٍ لدى سعادته والجميع، ان هذا الارز المقدس الرفيع، هو عين الارز المقطوع منه الخشب العظيم، الى هيكل سليمن الحكيم. بل هذا الذي كان به قول النبي داود اعظم برهان، وهو ان الصديق ينمو كالارز في لبنان. وقول النبي الاخر النبيل: «هلمي من لبنان يا عروسي للتكليل». وبالتالي هذا هو الارز المثنى بمدايح موتلفه، والمنعوت بتقريظات مختلفه؛ بعبارات جزيله مؤسسه، على الاسفار المقدسه. وناهيك من وجوده في سفح ذلك الجبل الاسيل الاملد، في بقعه جليله بشكل مفرد؛ حاوي الماء العذب، والنسيم اللطيف الرطب؛ والمناخ اللين الحسن، والمشهد الشهي السكن. وما احلا المقال الناذر، الذي قاله في مثله الشاعر:

وقانا نفحة الرمضاء نادٍ سقاهُ مضاعف الغيث العميم
حللنا دوحهُ فحنى علينا حنوّ المرضعات على الفطيم
وارشفنا على ظمإٍ زلالًا ارقّ من المدامة للنديم

١) يوسف بك ومخايل بك. ٢) حبيب بك كرم.

٣) هو ابن خال بطل لبنان وحميد الشماس الشيخ انطونيوس ابي خطار المؤرخ الشهير و «شيخ مشايخ الحية» من قرية عيتورين الكائنة في بطن الجبل بين اهدن وبشرى قزحيا. وهي اسرة عريقة وثيقة بجدها الشدياق توما. تفرع عنها مشايخ بيت رافول في قرية اجبع ومشايخ بيت عبد النور في بشعلي (عن قلائد المرجان المخطوط).

٤) وقال عن ذلك نعيم نوفل صفحة ٢٢٦، انه كانت تحرس الحرفان بالمئات من اهدن الى الارز لحول الطريق ذهابًا وايابًا في ذلك الموكب الملوكي.

يصد الشمس انّى واجهتنا فيحجبها ويأذن للنسيم[1]

فلهذا قد استوعب سعادته من ذلك مزيد السرور ، بل امتلأ من البهجه والحبور . واخذ يرسم بيده اللطيفه صوره تلك الاشجار الشريفه .

١١ بين دي جوانفيل والبطريرك الماروني

واذ كانت قد بلغت من الليل الماضي ، بشرى تشريف سعادته هذه الاراضي ، الى غبطه السيد الكلي القداسه ، والسامي اللطف والرياسه ، صاحب المجد القدمي ، لدوله فرنسا العظمى ، الشهير بمنار يوسف[2] بطرس بطريرك الطايفه الماروتيه ، في ساير الاقطار الشرقيه [١٠] . فحالما سمع غبطته بهذه البشرى السنيه بل المنة الكبرى العليه ، قد ارسل لاهدن كاتم اسراره ، لاستبار الخبر المسار تذكاره ، لكي اذا ما تحقق غبطته اقبال سعادة صاحب الجلال ، يتوجه فوراً للقاء والاستقبال . واذ بلغ كاتم الاسرار لاهدن ليلاً ، واذا بسعادته وقتيذٍ متبلاً . فتقدم كاتم السر لناديه ، وامثل بين يديه . ثم اعرض للسامع الشريفه ، عن غايه مجيئه بتلك الليله الحالكه الكثيفه .

---

١) هذه الابيات لشاعر حلب الشهير ابي نصر المناذري . وهي في اصلها خمسة اصل المؤلف خامسها وهو :

« تروع حصاه حالية العذاري فتلمس جانب العقد النظيم »

انشدها المناذري في حضرة ابي العلاء المعري العزيز حيث جمعتهما صدفة في الشام ، متنزهاً فيها بوصف وادي بزاعة قرب حلب . وبعد الانشاد قال له ابو العلاء : « انت اشعر من بالشام » . مرت على ذلك ٧ سنوات وجمعتهما صدفة اخرى في بغداد فانشده المناذري خمسة ابيات اخر على نفس الوزن والقافية . فقال له المعري : « ومن بالعراق » . عطفاً على قوله السابق في الشام ، قبل ٧ سنين . وهو مثال اعلى اقامه ابو العلاء من قوة الحافظة وشدة الذكاء وسرعة الابتداه . وحبذا لو ابقاها المؤلف على اصلها خارجةً من فم المناذري . ففي البيت الاول وضع « نفحة » عوض « لفحة » « ونادٍ » عوض « وادٍ » ، وفاته ان اللفح للحر والنفح للبرد . وفي الثاني اتخذ حلنا بدل تركنا ، وهذا ما قال المناذري لا ذاك . ثم اخطأ في كتابة « حنى » والصواب « حنا » لان مضارعها يحنو كما لا يخفى . وفي الثالث اعتمد كلمة « ارق » مكان « الذ » ، وعهدُ المناذري بالثانية دون الاولى . اما البيت الرابع فيحمد الله على السلامة . واما الخامس فقد عمه الاهمال من تكبات اخوانه .

٢) البطريرك يوسف حبيش (١٨٢٣ — ١٨٥٥) .

فاخذه سعادته بوجه مانوس ، وامره بالجلوس. اما كاتم السر المذكور ، عندما تحقق الخبر المسفور ؛ فهمّ واخبر غبطته عجلاً ، وان يكن الوقت ليلاً.

ولهذا ففيما ان سعادته مقره الالحاظ الالميه ، يشهد تلك الاشجار البهاظ البهيه ؛ اذا بغبطه السيد الموسى اليه قد اقبل ، وبمعيته جمهور من الخدام والحلل[1] واذ بلغ سعادته خبر اقباله ، امتلأ فرحاً وقاهب لاستقباله. ودلالةً على انه سليل تلك العيله الملوكيه الشريفه ، المجمله بحسن الديانه المسيحيه الغرّاء المنيفه ؛ فلهذا حالما اقترب غبطته لحاه ، فرّ منتصباً وجدّ السير للقاه ؛ وحيّاه تحيات التقاه الكرام ، واجلّ مقامه الروحي اجلالاً فايق المقام. وكان هكذا اول خطاب سعادته مع سيادته : « انه ليصعب عليّ جدًا مما الّم بسيادتك من الثقله والعنا ، في حضورك بسببي لهذا المنا ». فاجابه غبطته هكذا :

« يا له من امر عجيب ، وشرف سامٍ غريب ؛ الشرف الذي حازته هذه الامصار ، الامر الذي ما اخبرت عنه سوالف الادهار. وهو انه قد وجد ههنا فرع الشجره الملوكيه ، وسليل السلطنه الفرنساويه ؛ الحارسه في كل اقاصي البريه ، حسن الديانه المسيحيه [١١]. ومن ثم ليس اني فقط لم اشعر بسفري هذا على ادنى عناء او اذا (اذى) ، بل بالحري قد حزت حظاً سعيدًا ساميًا ، وشرفاً فريدًا متساميًا . حيث اني في هذا الوقت والمكان اللطيف ، قد تشرفت بمقابله شخص سعادتك الشريف. وسيكون لي سرور اعظم ، وشرف جزيل افخم ؛ اذا حصلت من منازلة سعادتك الوفيه ، على تشريفك الكرسي البطريركيه (قنوبين) ».

وعند انتهاء هذا المقول ، انشى سعادته يقول : « ان جميع الاقاصي الشرقيه ، منسوبه للبطريركيه الماروتيه . وامر معلوم ان اشرف هذه الاقاصي بل وكل الامصار ، هو ارز لبنان الكلي الشرف والافتخار. ومن حيث اني حصلت على زيارته الشريفه ، فافتكر كأني زرت ذات كرسيك المنيفه ». فحينئذٍ اخذ سيادته يسدي سعادته مواجب الدعوات الخيريه الوافره ، والتوسلات

---

١) جمع حلة ومعناها المجتمع . عبّر بها عن كثرة الجمع القادم برفقة البطريرك .

التقويـــه المتواتره . وبسط اكف الابتهال والضراعه ، لدى صاحب الاستماع والشفاعه ؛ بحفظ عز جلاله ملك الفرنساويه ؛ وترس الديانه المسيحيه . وان يديم سرير سلطنته بالعز والاقتـــدار ، ويزيد نعيم دولته مدى الادهار . وبعد ذلك قد حسن لدى سعادته ، ان يكلف غبطته للجلوس لاخذ راحته ؛ فابى غبطته من الجلوس تلاطفاً ، حيث ان سعادته استمر واقفـاً . واذ شعر سعادته بذلك ودرى ، قد جلس فوراً على الثرى . ثم انه اعدَّ بيده الشريفه ، وسادته الظريفه اللطيفه ؛ فاجلس غبطته عليها بكل احترام . واخذ يلاطفه بعذوبة الكلام .

ولمـا حان وقت غداه ، كلف غبطته للجلوس حذاه . واخذ يستمثل نحوه واجبات المرايد ، بمناولة الاطعمه حسب العوايد . وجرت بعدُ محادثات [١٢] اخر انيسه ، بموضوعات عذبه نفيسه . فاتـــام سيادته بحضره سعادته نحو اربع ساعات ، فكانت لديه كاضغاث حلم وفات .

١٢ وداع الاسير للبطريرك

واذ كان النهار ، قـــد ناهز الاسفار[1] ؛ وضاق على غبطته الزمان ، لبعد مسافه الاوطان[2] ؛ فلهذا قد حاول الايلب مستأذناً سعادته قبل الذهاب . اما سعادته قد كان امتطى جواده كالبطل ، راغباً الصعود الى اعلا الجبل ؛ ليقابل من هنـــاك الاطروفه العجيبه ، والاعجوبه الغريبه ؛ بهجة الدنيا الوحيده ، الشهيره بقلعة بعلبك الفريده . لانها تتراءى من اعـــلا الجبل شرقي بقعه الارز الجليله ، من مسافه ست ساعات مستطيله . واذ شعر ان غبطته يحاول المعاد ، فارعى بنفسه عن سنام الجواد ؛ وتقـــدم نحو غبطته للوداع ، والقلب مصمى بسهم الالتياع . فودّعه بكل ودٍ واحترام ، طالباً منه الموازره بالدعا المستدام . ثم اخذ كلٌ طريقه ومضى ، كأنه ساير على جمر الغضا .

---

١) جمع سَفَر ومعناه بقية النهار بعد مغيب الشمس .
٢) بين قنوبين والارز مسافة اربع ساعات شيّا .

١٣ الرجوع الى اهدن والمبيت الثاني فيها

فلما بلغ سعادته الى اعلا الجبل المذكور ، وشاهد تلك القامه بواسطة الناظور ، قد راق له مشهد ذلك ، ثم اخذ بالرجوع طريقه السالك . ولما انتهى للارز المارّ بيانه ، امر بقطع حصة من اثماره واغصانه . وظل مجدًا السير بالرجوع ، الى اهدن وتلك الربوع . واذ اشرف على المحل المحرر ، واذا بجموع مقبله للقاه لا تقرر : رجال ونساء وحدثان ، من القرى القريبه واهل المكان . فسارروا امام سعادته بالاجمال ، بغايه من الابتهاج والاحتفال . فانتهوا الى نادي الشيخ بطرس المعلوم ، في اخر النهار المرقوم . فاقام سعادته نحو ساعتين زمان ، ثم امر باحضار العشا من غير توان . فهيأه الشيخ بطرس من دون [١٣] تغاضي ، كما اعدّه باليوم الماضي .

وعند الانتهاء من الطعام ، واحضار ما فخر من المدام ، فنهض الشيخ منتصباً على الاقدام ، بغاية المهابه والاحتشام ، وانشى يقدم الدعوات اللطيفه ، والشكرانات المنيفه ، لجلاله الملك المظفر ، والريبال المصور المنصفر ، صاحب السلطه القيصريه ، سلطان الابطال الفرنساويه . ثم اخذ كاساً من السلافه ، متاذناً سعادته بكل لطافه . فرشفها بسر جلاله الملك الوقور ، سلطان الفرنساويه المنصور .

اما سعادته ، عندما شاهد ذلك ، فرّ منتصباً على الاقدام ، اجلالًا لسر عظمة والده المفخام واعدّ عمل الشيخ بطرس هذا بانه عن نباهه رايقه ، وفطنة شفافه حاذقه . واوعده بانه سيعرض لجلالة والده العطوف ، كلما بدى منه من اللطف والمعروف . وعند الانتهاء من الطعام ، وحسر المدام ، نهض سعادته للقيام ، ودعى لمجلسه الشيخ المومى اليه ، حضر لديه مع ابنيه ، وهما ميخايل ذو اللطافه ، ويوسف ذو الملاحه والظرافه . فانعم عليهم سعادته بعلبه فاخره من العسجد ، وساعه من الذهب المنضد . ثم بزوج من الطبنجات ، من منقولات الملوك والولاة . فقبلوا امتنانه ، وشكروا احسانه . واذ بلغ وقت الرقاد ، ذهب لمخدعه كالمعتاد .

١٤ اليوم الثالث في الهدوء : مقبلاً العرس .

وفي غد ذلك الصباح ، عندما بشق الفجر ولاح ؛ قد نهض سعادته من منامته ، ودعى الشيخ وابنيه لحضرته . واخذ يرسم[1] في بنانه الشريفه ، صور اشخاصهم اللطيفه . ثم رسم ايضاً صورة الشيخ حبيب ابن اخي الشيخ بطرس الموصى اليه ، وصورة الخواجه [١٩] طوبيا طربيه ، مشهراً بانه قد راق له لطف هنداميه ، ثم رسم ايضاً صورة احد خدامه . واذ كان ذلك اليوم المسعد ، متوقعاً يوم الاحد ، الذي تم به بعد التقديس ، اكليل ذينك العروسه والعريس ؛ فلهذا قد تأهب سعادته للذهاب تأهب الفضلا ، لساع قداس احد السادات النبلا ، المعروف بالسيد الجليل ، والراعي النبيل ، اسطفانوس[2] دويهي اسقف امدن الزهيه ، وتلميذ المدرسه الرومانيه ؛ الذي قد كان حضر لدى سعادة الامير الموصى اليه ، واسداه الدعا حسبما وجب عليه . فتقدم حينئذٍ الشيخ بطرس لدى سعادته حميد الشيم ، بقلب مملو من الرجا والشم[3] ؛ وتوسل اليه ان كان يشاء متنازلاً ؛ وينعم متفاضلاً ، فيصير اشبيناً لذلك التكليل ، ليكون ذلك لديه شرفاً ملوكياً جيلاً بعد جيل . فيا له من تنازل جزيل لا يستقصى ، وتفاضل ملوكي لا يحصى . فمن فرط حبه الوفور ، نحو الشيخ بطرس المذكور ، كان الجواب بالايجاب ، مجيباً التماس الشيخ بطرس ومراده ، ومتمماً له كلما اراده . وبعد الذهاب والاياب من القداس والتكليل ، بالاحتفال الجزيل[4]

---

١) كان الامير دي جواقيل رساماً حاذقاً كما قال هو عن نفسه في كتابه « المذكرات القديمة » صفحة ٩٣ وما بعد ، انه كان يختلس الفرص مدة سياحته هذه في المياه الشرقية ويجرع الى القلم فيرسم به ما حدث له من المشاهدات براً وبحراً كل يوم بيومه .

٢) هو الحلقة الاخيرة التي انتهت عندما سلسلة الاساقفة الدويهيين الاعلام .

٣) الطمع ، ويريد به الدالة .

٤) واليك وصف هذا الاحتفال ملخصاً عن نسيم نوفل صفحة ٢٢٥ وما اليها : « ولما علم الشيخ بطرس كرم ان ابن ملك فرنسا سيكون اشبيناً لابنته اجّل الاكليل الى اليوم الثالث واعلن البشائر على قرى الجبة والزاوية وهموم مقاطعات شمالي لبنان . واجتمع في امدن يوم الاحتفال نحو ٣٠ الف رجل ينشدون ويطلقون ويطلقون البارود . وكانت مراقص الفتيان

الجميل ؛ قد جلس سعادته بمكانه ، ومثل بحضرته جميع اعوانه . ثم امر فحضرت العروسه ووالدتها واشبينتها لديه ، وتشرفن بلثم اذياله وامتثلن بين يديه . فاجلس العروسه بجانبه المقدام ، بغاية اللطف والاحتشام ثم اخذ كعادة الاشبين ، يهنيها بكل رفق ولين . فمكث ريثما حيّاها بالسلام ، ثم ودعها ونهض للقيام .

فامر باحضار الفطور ، فصار ذلك من غير فتور . فجلس على المايده واجلس المتادين [١٥] بالجلوس ، ثم اجلس ايضاً عن شماله قرين العروس .

١٥ مغادرة العروسة الى ميناء طرابلس

ولما انتهى من الطعام ، اخذ فوراً بالسفر المقرام . فسار امامه الجمع النفير ، بالاحتفال السابق التقرير . ولما جازوا امامه بعض اميال ، امرهم بالرجوع والمآل . ثم اودعهم وذهب ، واودعهم اللهب . فظل سايراً بركابه الوقور ، ابنا الشيخ بطرس المذكور ؛ ثم الشيخ حبيب (بك كرم) الموصى اليه ، والخواجه طوبيا طربيه ؛ والشيخ خطار الشدياق ، وبعض من الرفاق . ولما انتهوا الى ارض البقاع[1] جايزين الطرقات الشاقه ، غدوا يشدون الركبان اخذين بالمسابقه . فظهر

والفتيات مالئة شراوع اهدن وفساحاتها الرحبة على قرع الطبول ونغمة المزمار ونقرة الاوتار وكانت اهدن في تلك الليالي الزاهرة برجاً من نُور . وعندما ازف وقت الزفاف خرجت العروس من خدرها وعلى وجهها طلاء من الدقيّ الوردي وثوجا من الاسطوفة المذهب ويداها مخضبتان بالحناء ، جرياً على ازياء وبجرجة تلك العصور ، والعذارى يحطن بها احاطة الهالة بالقمر . وسار الموكب بالعروس الى الكنيسة وعن يمينها سمو البرنس دي جوانفيل حاملاً بيده شمعة طويلة مزدانة بالورد والزهور . واذ وصل الى ساحة الميدان ، بين اطلاق البارود وزغردة النساء وخليل الرجال ، عزفت موسيقى المطارية (الصور) بالطبول والزمور . فسار لها سموه ببلغ سبعة الاف فرنك ، وبنصفه عند الرجوع من الكنيسة . وبعد اقبال العروسين من الاكليل المقدس من يد المطران اسطفان الدويهي ، طلب سموه ان يشاهد العروس في بيت ابيها . فلما وصلوا بها الى الدار رآها جالسة في معرض الجلاء وهي منصة العينين . واذ علم سموه من شقيقها يوسف بك البالي الكرمي ان ذلك من العوايد الشرقية اخذ رسمها في الفوتوغرافيا وارسله الى شقيقته الدوقة ورتجرج التي كانت ممتازة بصنعة حفر الصور . وبارح سمو البرنس اهدن بعد ساعات قليلة من حفلة الجلاء .

١) يعني سهل الزاوية في الجنوب الشرقي من طرابلس ، لا سهل البقاع الشهير .

سعادته على سنام الجواد ، شديد الهمه والطراد ؛ اخف من العقاب ، واسرع من السحاب. فجاز الجميع بالسباق ، وغادرهم يحاولون الالحاق. وما زال بالجد والكد والاقدام ، الى ان بلغ طرابلس الشام . وظل اخذًا الجدّ والاحتاج ، الى المكان الشهير بسوق حراج ، المشتمل على بعض عواميد عظيمه ، تستحق توسيمات الملوك الوسيمه. فرسم سعادته صورة ذلك ، وظل اخذًا طريقه السالك. ولما انتهى الى الميناء حيث الشاطئ ، اخذ فلوكه ونجع الفراكاته من غير تباطئ.

١٦ وليمة الوداع في الدارعة ايفجينيا

وبعد ان استوى على سريره الباهر ، امر ان يعد العشاء من الطعام الفاخر. ثم ارسل يدعي بوليمته المنيفه ، جميع الاتين بخدمته الشريفه . فمنهم من اعتفى لبعض موانع ، وابنـاء الشيخ بطرس لبياه من غير مانع . فسارا الى الفراكاته السعيده ، وتشرفا بمشهد تلك المناظر الفريده . فسعادة النجل [١٦] المنتصر ، ظل متسربلًا بحلة السفر ، اما اعوانه تسربلوا بحللهم الزريفه ؛ وتقلدوا بنواشين وظايفهم الشريفه.

ثم امر سعادته باحضار العشاء ، فبار ذلك حسبما شاء . فجلس بالمكان المنسوب اليه ، واجلس ابني الشيخ بطرس عن جانبيه . ثم جناب القنصل وبقيه اعوانه ، كلًا لمكانه. فاُحضرت الاطعمه الفاخره ، والمشارب العذبه العاطره ؛ المعدّه بالاتيه الذهبيه ، التي لا تنعت سوى بايدة ملوكيه . وعند الانتهاء من الطعام ، واحضار ما فخر من المدام ، قد اثر سعادته ان يظهر زيادة حبه السامي ، وانعطافه الملوكي الطامي ، نحو الشيخ بطرس المحرر ، فاخذ امام كل من حضر ، كاساً من الخمر الباهر النور ، فحساها بسر الشيخ المسفور. فانتصب ابنا المشروب بسره على الاقدام ، وشكرا احسانه ودعيا بحفظه مدى الدوام.

وكان الانتهاء من هذا العشاء الاثيل ، في الساعه الخامسة من الليل. وبعد ذلك دعى لحضرته ، القنصل المذكور الذي كان بخدمته ، واخذ يظهر له سروره منه بما يفوق القياس ، ثم انعم عليه بثلث قطع من الماس. فتقلدها بمقام الازرار لاسماله النظيفه ، وشكر مكارمه العميمه. وحينئذٍ تأهب سعادته للسفر ،

وودع جميع من حضر . فودعهم وفات ، واودعهم الافتتات[1] .

١٧ مغادرة الشواطئ اللبنانية

ولما بلغ الى مدينـــه بيروت ، لم يؤثر بها الثبوت . بل ظل اخذًا الطريق اللاطيف ، حتى الى القدس الشريف . وبعد زيارته مقادس تلك الربوع ، انعكف اخذًا طريق الرجوع . ولما انتهى لجزيره مالطه ، قد ادخل نفسه تحت لواء الشريعه [١٧] القاسطه ؛ متمماً بها عمل الكوارنتينا حسب الواجب ، واخـــذ شهاب المسير من غير حاجب . ولا زال يقطع الطرقات بالمجيز ، حتى انتهى الى باريز ؛ قافل حينيذٍ شعاع شمس سعادته المشرق ، عن اقاصي بلاد المشرق . فغدا لبنان يمضي بنان الندمان ، ويفكر بما كان ، شعرًا :

ولذاك اصبح في المذيذ بما مضى فكأنه اضغاث حلم وانقضى
وغدا لسان الحال يهتف قايلًا متضورًا متـــأرقًا متمضضاً
فكأنه برق تالق بالحـــما ثم انطوى يا ليتهُ ما اومضا

والى هنـــا كانت النايه ، مما اشرت عنه البدايه . اي بزوغ شمس سليل السلطنه الفرنساويه ، في موامي الديارات الشرقيه . فـــلا زالت شموس هذه الدوله مظللة الـــرايا بكل الاقطار ، ومدججه باسلحه العز والفخر والبها والانتصار ؛ بحقوقه من المولى الرحمن ، بدوام التاييد لانقضاء الدوران ، آمين .

كتب هذا الكرّاس عن اصله حبيب عوّاد لجناب الخواجه طوبيا طربيه الاسعد في ١٥ ايار ١٨٣٧

ملحق

هـــذه هي المخطوطة اوردناها بنصها وفصها معلقين عليها ما رأيناه واجباً يناسب المقـــام . وقبل ان نمسح اليراع برقيمة الختام نذكر ما فعل الامير دي جوانفيل مع البيت الكرمي بعد وصوله الى باريس مبتدئين بما قاله نسيم نوفل عن ذلك في كتابه « بطل لبنـــان » صفحة ٢٣٦ ، وخاتمين بما رأينا نحن رأي

١) كلمة من نحت المؤلف ، جاء بها لقيام السجع ، والتعبير عن الم الفراق الشديد .

العين. قال نوفل :

« وبعد وصول سموه (دي جوانفيل) الى باريس ارسل هدية ملوكيه الى العروس وهي عقد وحلق من الجواهر الثمينة وصليب معلق بسلسلة ذهبية وسوار مرصع بالحجارة الكريمة. والى والدها علبة عطوس من ذهب مثمن مرصعة بالالماس . والى كل من مخايل بك ويوسف بك بنادق من الطرز الاخير وست مسدسات . وقد رأيت بعرأى العين مدة وجودي باهدن تلك المجوهرات التي لا زالت محفوظة كذخائر مقدسة يتوارثها الخلف عن السلف ».

وبعد ان مرت على العروس حقبة كبيرة من السنين صارت ام بنين كثيرين . منهم الشيخ بولس الشي البطل والشهيد اللبناني المعهود. وقد ازوجته امه من خزون ابنة شقيقتها حرا زوجة قيس بك الظاهر الشهير وهنأتها بالتحفة الملوكية ، هدية دي جوانفيل اليها وهي عروس . اما خزون فاحتفظت بهذه التقدمة النفيسة العزيزة الى ما بعد ان ماتت خالتها وحماتها السيدة كاترين ، ريانة من الايام والاعجاد ، بروح من السنين طويل. ثم باعت زوج الحلق والسوار والسلسلة ممن بحثنا عن معرفته بجد وعناء. وعبثاً ما نشدنا وبحثنا.

اما العقد الثمين فاشتراه منها شقيقها المرحوم بركات بك الظاهر وقدمه بعد حين لابنته السيدة حسنا تهنئة بزفافها الى الشيخ نعمة الله الظاهر في قرية كفرياشيت الزاوية. والسيدة حسنا وهبت بدورها تقدمة ابيها لابنتها السيدة مريانا عقيلة النطاسي الفاضل الدكتور سعيد نخول من قرية بسلوقيت وطبيب قضاء زغرتا الحالي. والسيدة مريانا ما زالت في ميعة الصبا ونضارة الفتوة تزين جيدها بذلك العقد الملوكي النادر. وهو بشكل سلسلة عريضة ، من الذهب الثمين جداً ، بديعة الصنع للغاية ، يتصل طرفاها بصليب ثمين محفور عليه شعار المملكة الفرنساوية بصورة زنبقة منتصبة . وقد زرنا بنفسنا السيدة مريانا في دارها بزغرتا مدة وجودنا السنة الماضية هناك ، فارتنا بين حلاها ذاك العقد الفريد ، وقد اخذنا صورته كما هو بالذات وتكرمت علينا بهذه المعلومات التي تقدمت عن مصير تلك الهدية الملوكية وتنقُّل العقد بالتسلسل حتى انتهى اليها على ما تقدم والسلام.